أسئلة النقد الأدبي العربي الحديث

أزمة ثقافة أم أزمة منهج؟

محمود ميري

لا يهدف هذا العرض الموجز أن يقدم كشف حساب عن الوضعية النقدية العربية الراهنة، ولا يتوخى إصدار أحكام نهائية في هذا الصدد، ولكن إدراكاً منه لنسبية الحقائق يطمح إلى الوقوف عند بعض المحطات الرئيسية التي جاءت بها بعض الدراسات الحديثة، وخرجت بها بعض الندوات التي شهدها الحقل النقدي العربي في السنوات الأخيرة.

الأمر إذن يتعلق ببعض الأسئلة البارزة التي تميز المشهد النقدي العربي الحديث من حيث خلفياته المعرفية، ومن حيث تجلياته المنهجية، ومن حيث إطاره الثقافي العام، أو من حيث مسلكه داخل فضاء المثاقفة التي تفرضها العولمة من جهة أخرى. الأمر في النهاية يتعلق بطرح جملة من القضايا والملاحظات، ولا يهمه أن يقدم لها أية إجابات.

باب بعض ما جاء في أسئلة النقد الأدبي العربي الحديث:

- **الملاحظة الأولى:** إنَّ الدارس يجد نفسه أمام زخم هائل من الدراسات التي تدعي أنها تنتسب إلى هذا الحقل المعرفي، إلاَّ أن هذه الدراسات تتوزع بين النقد الأدبي، والدراسة الأدبية، والتعليق على الكتب والإصدارات.

الملاحظة الثانية: إن الطموح الذي راود الكثير من الدارسين والمتمثل بشكل خاص في الرغبة في رصد التطور الداخلي لهذا الحقل من حيث ثوابته ومتغيراته، يُفاجأ بكثير من الطفرات أو النقلات غير الطبيعية، وبكثير من أنواع الهروب المعاكسة في اتجاه سراديب التراث ودروبه. إننا في هذه الحال نعثر على كثرة أسماء النقاد وتعدد الباحثين الذين يملأون المشهد العربي أكثر مما نعثر على مناهج أو مدارس نقدية أصيلة. إنّ هذه المؤلفات ترفع شعارات نقدية ومنهجية أقرب إلى التبشير أكثر مما تؤسس لمقاربات فاعلة ومتميزة.

الملاحظة الثالثة: إن البدائل المنهجية التي يقترحها المجددون في هذا المجال المعرفي – والواردة في سياق مناخ الحداثة سرعان ما يعتريها الوهن، ربما لأنها كانت قد أحيلت على المتحف التاريخي في بلدانها

الأصلية، وربما لكونها لم تجد الأساس الفلسفي الجمالي الذي من شأنه أن يدعم مسارها ويغذي انتشارها، كما كان الشأن بالنسبة للحقل النقدي في الغرب الأوروبي. لقد كان النقد هناك قد انتعش في بنية المجتمع وفي جسم الثقافة قبل أن يرقى إلى المدونات النصية، ذلك لأن تاريخ النقد لا يمكن عزله عن تاريخ الفكر، وعن تاريخ الثقافة والإيديولوجيا.

هذا ما يؤكده سيد البحراوي قائلا: " إنَّ النقد العربي يعيش حالة أزمة، ومن مظاهر هذه الأزمة غياب تام لدور النقد في الحياة الثقافية – غياب المنهج الواضح، الشيء الذي يترتب عنه عدم تبلور مدارس نقدية عربية تقدم رؤية متكاملة للعمل الأدبي. ورغم المحاولات المتكررة والفردية في أغلب الأحيان، لم يستطع النقد العربي أن يؤصل مدرسة لها معالمها ومريدوها"(1).

هكذا، ورغم تجمعاتنا الثقافية الإقليمية، ورغم أن جامعاتنا ومعاهد البحث العلمي عندنا – في العالم العربي – قد عرفت نوعا من التوسع الملحوظ في ظل اعتماد سياسة تنموية* تعليمية جديدة تحت ضغط مطالب الحركات الوطنية، فإنها لم تستطع أن تنجب خلال هذه المرحلة اتجاها أدبيا أو مدرسة نقدية متميزة رغم تعدد مظاهر التفاعل والحوار التي خاضته سواء تحت مظلة حوار: شمال/ جنوب أو حوار: جنوب/ جنوب. ويرجع هذا بالأساس إلى هيمنة المراكز الأوروبية وقدرتها على إخضاع المحيطات الأخرى لسلطتها المركزية في كل شيء. لقد ظل الهامش مشغولا بهواجس النقل والتطبيق والتجريب، لم يستطع هذا الأخير، سواء على مستوى الخطاب النقدي أو الكتابة الروائية أو القصصية، إلاَّ أن يعمق حس التقليد.

بهذا الشكل لم نستطع أن نخرج من دائرة الانبهار وإعادة الاستهلاك إلى مجال الإبداع والمنافسة. يذهب محمد جمال باروت إلى أنه: " من الصعب تمييز لغة واحدة في النقد العربي، بل يمكن تمييز عدة لغات، إلا أن اللغات في مصادرها ليست إلا تنويعا في ثقافة الغزو، ومقولتها المحورية " المثاقفة"، لكأنها في عمقها لغة واحدة، هي لغة " الميتروبول "، هذا لا ينفي أن نجد داخل اللغة الواحدة، لغات متعددة. إن من الصعب – مثلا – الحديث عن لغة بنيوية واحدة بقدر ما يصح الحديث عن لغات بنيوية: (كمال أبو ديب – أدونيس – خالدة – سعيد – محمد بنيس – يمنى العيد – عدنان بن ذريل – إلياس خوري – طاهر لبيب...) كتعابير عن اللغة " البنيوية "، إن هذه اللغة ليست أصيلة في وعي الانتلجانسيا العربية، إنها وافدة، مسقطة، مع تفاقم عملية الإعراض عن الذات التي تحول وعي النقد العربي إلى وعي " شقي" "(2). ورغم هذا النقص الحاصل في الإمكانيات الذاتية، فإن الأستاذ

محمد برادة يلاحظ أن النقد العربي في السنوات الأخيرة بدأ يعيش فترة بحث وتساؤل ومخاض يمكن أن يتمثل في المؤشرات التالية:

1-التحول الذي طرأ على نوعية الكتابة النقدية ووظيفتها – وذلك بتحرير الأعمال الأدبية من قسرية المعنى الواحد.

2-التخلي عن الأحكام المعيارية، والنوعية في إنتاج معرفة خاصة بالعمل الأدبي.

3-تعدد المقاربات النقدية، واستعادة الكتابة لعلاقاتها الجدلية مع القراءة والتلقي.

4-اهتمام متزايد بالمنهجية، والمنهج والمصطلح، وعلمية النقد.

5-إقبال النقد الأدبي العربي على تحديد أدواته ومنهجيته.

6-إعادة صياغة النقد العربي لأسئلته التي هي بالضرورة جزء من أسئلة الثقافة في مرحلة تاريخية معينة(3).

ورغم هذه المؤشرات الإيجابية التي يرصدها محمد برادة، فإن المشهد النقدي العربي لا يتميز بالانسجام، ولا يسير في خط تطوري يؤسس للحداثة النقدية وللتجديد، بل الأخطر من هذا، فإن الكثيرين من دعاة التحديث سرعان ما كانوا يعودون إلى خنادقهم الأصلية ليتمسكوا بالأسئلة النقدية العربية القديمة ذات المنحى التاريخي والوجودي.

يصف لطفي اليوسفي : الخطاب النقدي العربي المعاصر بأنه " خطاب محنة " يحركه وعي "شقي "، فهو مرتهن من جهة بالرؤية التقليدية التي ترى الحديث النقدي" فعل تمييز لجيد الأدب من رديئه "، ومنوط من جهة ثانية بأوهام الحداثة وإدعاءاتها، حيث الهرب إلى الثقافة الغربية لاستلاف ما ابتدعته من مفاهيم، واقتطاعها من منابتها لإنزالها قهرا في أدبنا.

وأية قراءة بوحي التقليد أو الاستلاف ستكون قراءة " تحجب أكثر مما تكشف "، وهي تضر بالنصوص لأنها تحتويها بإيديولوجية مسبقة لا تتكيف أو تتوسع بموجب انتظام النصوص ذاتها من ناحية فنيتها وتبدلات استقبالها والوعي بها..."(4).

ولعل أهم ما توصل إليه محمد لطفي اليوسفي في نقد الخطاب النقدي المعاصر هو :" القول بلا تاريخية الخطاب النقدي العربي المعاصر، ولا تاريخية تعاملنا مع النص القديم والحديث معا. لأن الأسئلة التي تبنى عليها هي أسئلة ميتافيزيقية. فكل من الخطاب النقدي الإحيائي، وخطاب الحداثة، إنما تمسكا بمظاهر لا تشكل إلا أبعاد شعرية النص "(5).

إن النقد العربي الحديث – في مجمله – لم يتمرس بسؤال الشعرية؛ لأن رجل البويطيقا حين يجلس أمام العمل الأدبي، فإنه لا ينشغل بسؤال المرجعية، ولا بنيات القول، ولكنه يطرح سؤال البناء الداخلي والقيم الجمالية، والقوانين المحايثة. وقد سبق لهذا السؤال أن طرح ثلاث مرات في التاريخ الماضي للإنشائية (البويطيقا).

المحطة الأولى: أنجزها أرسطو الذي قدم في كتابه " فن الشعر " أول تحليل بنيوي لمستويات وأجزاء العمل التراجيدي.

المحطة الثانية: أرساها بول فاليري الذي طلب منا أن نحدد الموضوع الأدبي: كموضوع لغوي: الأدب هو دنيا اللغة.

المحطة الثالثة: ياكبسون : الذي يسمي بويطيقا كل رسالة تركز على ذاتها اللفظي الخاص.

في حين ظلت أسئلة النقد الأدبي العربي في أعم تجلياتها تنظر إلى الأدب من زاوية أخلاقية، من زاوية فعله ووظيفته لا من حيث جوهره وماهيته. لقد ظل الفكر العربي مسكونا بهاجس البحث عن الحقيقة: " أظن في الأخير أن إرادة الحقيقة هاته باعتمادها كذلك على دعامة وعلى توزيع مؤسسي تميل إلى أن تمارس نوعا من الضغط على الخطابات الأخرى، وكأنها سلطة (وأنا أتحدث دوما عن مجتمعنا). إني أفكر أيضا في الطريقة التي كان فيها على الأدب الغربي أن يرتكز لعدة قرون على ما هو طبيعي، وقريب من الحقيقة، وعلى الصدق، وعلى العلم – أيضا – أي باختصار على الخطاب الحقيقي"(6).

هذا ما أكده أدونيس أيضا حين ذهب إلى أن القارئ العربي مضموني بامتياز، فالأثر الأدبي يوحي له بمثل، بحكمة، إنه يبحث عن جواب ليؤمن تصالحه مع العالم، إنه يقرأ من موقع نفعي، إن مأزق القراءات السائدة عندنا يكمن في التروع التعليقي، إننا نقرأ الشعر (الأدب) كما نقرأ الفلسفة أو التاريخ، والنتيجة أن القراءات الشعرية التي ننجزها ليست شعرية جوهريا، لأنها تغيب الخطاب الأدبي فيما هو سواه. النتيجة " إذن أن هناك مبدأين يحكمان التقويم الشعري الشائع في البلاد العربية: مبدأ المطابقة مع الواقع أو الفكرة، ومبدأ الفعالية الوظيفية "(7).

والخلاصة أن هناك أزمة نقدية يعيشها الخطاب النقدي العربي، وإن كانت الأزمة لا تعرفها إلا الكيانات التي تتحرك، وكلمة أزمة هنا لا ينبغي أن نفهمها بالمعنى المتداول، أي أنها مأزق أو أفق مسدود لا يمكن الخروج منه، وإنما ينبغي فهمها على أنها حلقة تحوّل، قد تكون طويلة بفعل مقاومة

القديم الذي لم يمت بعد من جهة، ووجود الحديث الذي لم ينته من ولادته بعد كذلك! كما يقول أحد المفكرين الفرنسيين(8).

II – باب بعض ما جاء في قضايا المنهج في النقد الأدبي:

يلاحظ سيد البحراوي أن " الكتابة عن منهجية أو نظرية كان الطابع الغالب عليها هو التبسيط المخل من ناحية أو الغموض من ناحية أخرى، وعدم فهم الأصول في كل الأحوال، فمن خلل وتضارب في ترجمة المصطلحات إلى تناقض في فهم الجمل إلى قصور في فهم الخلفية التي تنطلق منها المقولات والنسق الذي تنتمي إليه الجزئيات، والسياق الذي تنبع منها النظريات وتجيب عن أسئلته سواء كان سياقا ثقافيا أو سياسيا أو اجتماعيا.."(9).

ويلاحظ أن نقدنا لم يستطع أن يحقق في كل مرحلة من مراحله، منهجا أو مناهج متكاملة ومتمايزة فيما بينها أو بينها وبين سابقتها بحيث إننا وجدنا – دائما – أن المنهج الجديد لم يستطع أن يحدث القطيعة مع المناهج السابقة عليه، إلاّ من حيث الشعار المرفوع وبعض المفاهيم، في حين تتسلل مفاهيم المنهج القديم القارة صراحة أو ضمنا إلى ثنايا المنهج الجديد فتجهضه تماما، أو تقيم ثنائية ضدية مع جديدة فتحوله إلى مجرد تلفيق لا صلابة فيه، ولا يبقى من الجديد سوى التسمية، أما البنية الأساسية فتظل قديمة وخاصة في حالة الممارسة التطبيقية..."(10).

إن انتقال المنهج (المناهج) أو هجرته كما هو الشأن بالنسبة لانتقال النظريات يضطره إلى التنازل عن كثير من مقوماته الأساسية كي يتكيف مع متطلبات الشروط الثقافية التي ينتقل إليها؛ وبذلك ينوب – في غالب الأحيان – عن المنهج صداه: [مثال ذلك : المسار الذي قطعه قطار البنيوية....].

هناك تجلٍّ آخر لتعاملنا مع مناهج الآخر تمثل في إكراه النصوص وليِّ أعناقها كي تخضع لإكراهات المناهج ومتطلباتها، لكن " أليس من مبادئ الفن أن لا تحتويه أية سلطة، وأن لا يتلاءم مع أي نفوذ، فمن خصائصه أن يظهر بداهة الحدث المطلق للتجارب العادية، إنه الملاذ الأخير"(11).

هكذا تتفشى الأزمة المنهجية التي تتمثل في عدم قدرة نقادنا المحدثين والمعاصرين على تحقيق طموحهم لامتلاك المنهج أو المناهج العلمية المتكاملة، والمتناسقة التي تسمح لهم بالتعامل مع نصوصنا الأدبية تعاملا علميا إبداعيا منتجا ومضيقاً..."(12).

كانت المناهج المختلفة قد عرفت اكتمالها مع نقاد من الوزن الثقيل : البنيوية التكوينية مع "غولدمان "، وهنا سأفتح قوسين لأقول بأن هذا المنهج يمارس إغراء خاصا بالنسبة للنقد العربي الحديث نظرا لطبيعته التوفيقية: الشكل والمحتوي... المنهج النفسي مع " شارل مورون" الخ... وكل محاولة لإعادة إنتاج هذه المناهج أو محاكاتها بنفس الدقة لا يمكن إلا أن تساهم في إفقارها، فالتاريخ هنا أيضاً، لا يعيد نفسه.

لقد كان " رولان بارت " يكره الخطاب حينما ينضج ويكتمل، ويصبح جاهزاً (والأمر يتعلق بالمناهج في حالتنا هذه) لأنه يصبح قابلا للتكرار والمحاكاة والتقليد.

ويؤكد أدونيس " أن المنهج قد يكون جيدا لمبتكره لكنه بالنسبة إلى غيره ليس إلاَّ مدرسة، وأنا غير مدرسي، كل مدرسي باطل..."(13). من هنا تأتي أهمية التعامل مع المناهج النقدية بنوع من الوعي بأصولها من ناحية، وبنوعية الاحتياج إليها من ناحية أخرى. ومن ثم بالقدرة على الاستفادة منها في التطوير والإغناء..."(14) *.

ينبغي ألاَّ يقضي أغلب نقادنا أوقاتهم في إعادة استهلاك هذه المناهج ومحاكاتها وتحويل مقارباتهم النقدية إلى تمارين مدرسية تهلل لهذا المنهج أو ذاك. إن الكائن أي كائن حي لا يمكن أن يعيش تحت الظل أو يعيش بالاقتراض. يقول إدوارد سعيد: " ويساورني الانطباع بأننا في العالم العربي نقوم بالنسخ المباشر. ما إن يقرأ الواحد منا كتابا من تأليف "فوكو وكرامشي حتى يرغب في التحول إلى "كرامشوي " أو " فوكوي "، لا توجد محاولة لتحويل تلك الأفكار إلى شيء ذي صلة بالعالم العربي. نحن ما نزال تحت تأثير الغرب، من موقع اعتبرته على الدوام دونيا وتتلمذيا. تأمل العدد الكبير من الأفراد في شمال إفر يقيا، في المستعمرات الفرنسية السابقة ممّن يكتبون وكأنهم تلاميذ" فوكو أوديريدا أو تودوروف، إنها نوع من فانطازيا التكرار التي أجدها مضحكة في معظم الحالات،الأهم راجع في نظري – وهذا مجرد انطباع– إلى فهم ناقص لحقيقة الغرب... أعتقد أننا لم ننل قسطا بعد عن سيرورة التنوير والتحرر بالمعنى الفكري؛ وأعتقد أنَّ اللوم يقع على المثقفين، إذ ليس بوسعنا أن ننحي باللائمة على الامبريالية والصهيونية.

ما العمل إذن في مناخ ثقافي مأزوم كهذا؟ وكيف الخروج من هذه الحلقة المفرغة؟ ما السبل الكفيلة بتجاوز إحباطات المرحلة الراهنة ؟ كيف يتم التغلب على مظاهر الاستلاب وتجليات الاغتراب الذي يحاصرُ الذوات؟

هل يتطلب الأمر إعادة النظر في كل المسلمات والأسس التي تقوم عليها الثقافة العربية الراهنة؟

تنحصر فاجعة الثقافة العربية المعاصرة ونقد الشعر فيها والنقد الأدبي والفني عامة في معبر ضيف بين" ذاتية تراثية " تحول التراث إلى قيمة مطلقة لا يقدر بها على التفاعل المباشر مع "الحضارة القائمة"، وحداثة تعلن في طباعها المعمم بؤسها وإخفاقها في تحقيق المدنية "(15).

كيف نستطيع أن نتجاوز نزعة الانبهار بكل ما تدفع به آلة الإنتاج الغربية التي تدور باستمرار، وتدفعنا إلى استيراد أحدث ما تنتجه دون استيعاب الإنجازات الفكرية والمنهجية السابقة له ؟

الواقع أن التعدد المنهجي الذي تشهده ساحتنا النقدية العربية ليس تعبيراً عن وضعية صحية جيدة بقدر ما هو صورة لهذه الحالة الهجينة التي لا يمكن التنبؤ بمآلها في ضوء تراجع دور الثقافة، ودور الجامعة في الحياة العربية: " أنا أعتبر أن هناك تراجعا في الحياة العربية المعاصرة والنقد جزء من هذه الفعاليات، ورغم ذلك لا أعتقد أن فترة من الفترات قد مرت أكثر خصوبة من هذه الفترة على النقد العربي.... ربما يكون النقد في هذه المرحلة لا يطلع أعلاما كبارا، فالناقد الكبير يحتاج إلى تجربة طويلة... ربما تكون المشكلة الأكثر أهمية هي تراجع دور المؤسسة الجامعية العربية التي تغلق جدرانها على ما يجري في الحياة الثقافية العربية، وتظل تجتر العديد من الأفكار دون أن تتيح لطلابها وأساتذتها بأن يكونوا فاعلين في الحياة الثقافية...."(16).

في ظل هذا المأزق الثقافي يمكن الوقوف عند المقترحات الآتية :

– ربما بات من الضروري – في ضوء هذه النهاية المؤسية – أن نعود إلى إعادة رسم معالم بداية الطريق من جديد، هذا الطريق الذي سلكتُه منذ بداية زمن " الحداثة"، ولكن هذه المرة خارج إكراهات الثقافة المستوردة؛ وفي هذا السياق يمكن الاعتكاف على إعادة إنتاج دراسة التراث القديم في ضوء الأدوات المنهجية الجديدة : " إن دراسات التراثات الوطنية هي العتبة الأولى والأكثر حيوية في استراتيجيات تقويض امتياز المركز الإمبريالي وجذوره الضاربة"(17).

أن نتطلع إلى شغل موقع يسمح لنا بالتفاعل الإيجابي مع منتجات ثقافة الآخر، وليس من الضروري أن يكون هذا الآخر هو الغرب الأوروبي؛ واستيعابها وتطويعها. وهذا يفرض علينا أن نقرأ أكثر ما يمكن، وأن نعمل على تمثل ما نقرأ عن طريق إخضاعه لأسئلتنا الثقافية الخاصة. وينبغي، كما أكد الأستاذ الجابري، " ينبغي ألاّ تكون الحقيقة لآخر كتاب قرأناه ".

———————

هوامش

1–الثقافة الجديدة المصرية – عدد: 12 – نونبر 1986، ص: 110.

* – نتبنّى هنا مفهوما للتمنية يرى أنها " انبثاق للقوى الكامنة داخل الكيان (أي كيان)، لاخارجه".

2–الموقف الأدبي المصرية – عدد: 12 – آذار 1982، ص: 41.

3–اليوم السابع – 20 يوليوز – 1987 – العدد: 167.

4–القدس العربي – مقال لحاتم الصكر – 7 نونبر : 1996 عدد: 2333.

5–القدس العربي – 10: يونيو – 1993 – العدد : 1264.

6– ميشيل فوكو – نظام الخطاب – ترجمة ذ. محمد سبيلا – دار التنوير – ط1 – 1984، ص: 14

7– محمد لطفي اليوسفي – كتاب المتاهات والكلاشي في النقد والشعر – دارسوا للنشر – ط 1: 92، ص: 29.

8–انظر مقال: سيد البحراوي/ أدب ونقد المصرية – أبريل : 1994.

9–سيد البحراوي " أدب ونقد المصرية – أبريل : 1994، ص: 11.

10–فتحي التريكي: فلسفة الحداثة – مركز الإنماء القومي بيروت: 92، ص: 93.

11–انظر: سيد البحراوي: م. س.

10–فصول المصرية – عدد: 3 – 4 – المجلد: 9 –فبراير : 1999، ص: 160.

12–انظر سيد البحراوي: أدب ونقد المصرية – العدد: 116 – أبريل: 1995.

13– انظر سيد البحراوي: أدب ونقد المصرية – العدد: 116 – أبريل:

14–القدس العربي – عدد : 1774 – 9 مارس: 1995.

* – يقول: " يبدو لي مصطلح طمس الهوية صالحا لوصف وضعنا السياسي العام.... ليس فقط النقاد، بل أيضا التلاميذ ودور الحضانة، والمدرسة والجامعة....

15–الكيلاني مصطفى: " وجود النص – نص الوجود ". الدار التونسية للنشر ط 1 – 1992، ص: 113.

16–فخري صالح: القدس العربي – عدد: 1662.

17–صبحي حديدي – الكرمل – العدد: 47 السنة : 1993.